

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأسطول:

يا حسنها يوماً شهدت زفافها ... بنت الفضاء إلى الخليج الأزرق
ورقاء كنت أيكة فتصورت ... لك كيف شئت من الحمام الأورق
حيث الغراب يجر شملة عجه ... وكأنه من غرة لم ينعق
من كل لابسة الشباب ملاءة ... حسب اقتدار الصانع المتأنق
شهدت لها الأعيان أن شواهنأ ... أسماؤها فتصفحت في المنطق
من كل ناشرة قوادم أجنح ... وعلى معاطفها وهادق سودق
زأرت زئير الأسد وهي صوامت ... وزحفن زحف مواكب في مازق
ومجادفٍ تحكي أرقام ربوة ... نزلت لتكرح من غدِير متأنق
وقال القسطلبي في أسطول أنشأه المنصور بن أبي عامر من قصيدة:
تحمل منه البحر بحراً من القنا ... يروع بما أمواجه ويهول
بكل محالات الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق غيل
إذا سابقت شأو الرياح تخيلت ... خيولاً مدى فرسانن حيول
متحالب تزجها الرياح فإن وقت ... أطاقت بأجساد النعام فيول
ظباء فلاة ما لمن مفاحص ... وورق حمام ما لمن هديل
سواكن في أوطانن كان سما ... بما الموج حيث الراسيات نزول
كما رفع الآل هوداج بالضحي ... غداة استقلت بالخليط همول
أرقام تحوي نافع السم ما لها ... بما حملت دون العداة مقيل

العربية والتركية

أصبحت الأمة بعد سقوط دولة بني العباس بفتور غريب في العلم والآراء لما عايشته من أهويل الحروب والفتن. ولما قامت الدولة العثمانية فجمعت تحت لوائها الأقطار

المختلفة نظرت إلى الأقطار العربية من الوجهة السياسية ولم تكن بها ولا بغيرها من الوجهة العلمية الاجتماعية شأنها في عامة أدوارها وأقطارها ولم يشذ عن ذلك إلا مصر فكانت أشبه بمملكة مستقلة حتى بعد استيلاء العثمانيين عليها. وبعد أن قامت الدولة تأسس لها مدارس في العاصمة والولايات لتعلم العلوم الحديثة وتبديل النور بالظلمة والعلم بالجهل قام محمد علي ووالي مصر فترع القطر المصري من الممالك في الظاهر ومن الدولة في الباطن وأنشأ فيه مدارس عربية وتوفر بدلالة جماعة من مستشرقى الفرنسيس النباء على ترجمة الكتب العلمية من اللغات الأوربية فانتعشت اللغة العربية في مصر فقط وظلت كهف العرب عنها يأخذون علومهم وموطن الطباعة والكتب والصحف وبأنوارها يستضيئون وذلك لغناها العظيم وتاريخها الجيد القديم.

بقي الأمل في نهوض العربية محصوراً في مصر لأن الشام والعراق والجزيرة والحجاز واليمن ونجد وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش أمست في فتور. وقد أنشئت في تونس وسورية بعض المدارس والمطابع تدرس بالعربية وتطبع اللازم من الكتب العربية لكنها لم تحض على تأسيسها بضع سنين حتى أطفئت شعلتها بما أصاب سورية من بلاء المراقبة وما أصاب تونس من الاحتلال الفرنسي. والمراقبة واحتلال الغريب مما يقتل روح العلم ويترع حياة النهضة القومية. وقد أوشكت مصر أن تصاب بضعف لغتها لما احتلها الإنكليز لولا أن قامت الأمة وطلبت جعل العربية لغة المدارس الابتدائية والثانوية فلم تر الحكومة بدءاً من إجابة طلبها.

أما هذه الديار فكان أول ما انصرفت إليه الوجوه بعد إعادة القانون الأساسي العثماني مسائل التعليم فالتركية لسان الدولة الرسمي تريد أن تعلمه جميع العناصر العثمانية ليحيى منهم في المستقبل مزيج واحد وتقوي وحدتهم السياسية. وقد نشرت نظارة المعارف برنامجها ولم نشهد فيه ذكراً للعربية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية بل

قالت أن تعليم العلوم التركية للذكور والإناث وللصغار والكبار وللغرب والترك والروم والأرمن والبلغار والأرناؤد حتى أن المبادئ البسيطة التي سمحت تعلمها من العربية تدرس في كتب ألفها أتراك باللغة التركية. فأدرك بعض الباحثين في أحوال البلاد والعناصر أن غرض الحكومة من هذه الخطة (تترك) العرب وغيرهم وهو عمل إذا كان نافعاً من حيث السياسة فلا نفع فيه من حيث الاجتماع والعلم خصوصاً بعد أن رأينا أصغر الشعوب الأوربية تحافظ على لغتها الأصلية محافظتها على أعراضها وأموالها وأرواحها.

لا بد للحكومة أن تجعل التعليم إجبارياً في المملكة فإذا جعلته باللغة التركية ولم تراخ حالة كل قطر ولغة أهله تسوء العاقبة ولا تأتي الشجرة التي تريد غرسها الآن بشرة جنية بل يكون شأن البلاد العقم في العلم والفكر ومن لم يعلم العلوم بلغته هيئات أن يأتي منه عضو يفيد أمته وبلادها. وإذا فعلت الدولة ذلك الآن فتكون في عهدها الدستوري أظلم منها في عهدها الاستبدادي وتكون حكومة مصر أرفق بأهل مصر من حكومتنا بنا لأنها منا فينتظر عن يدها الكثير وتلك ليست منهم وكل شيء تأتي به يعد كبيراً.

وبعد فإن كانت الحكومة العثمانية لم تنشط اللغة العربية في الماضي مع أنها لغة الدين والآداب والحضارة فهي لم تضع العقاب في سبيلها مباشرة ولكن الغلظة الفظيعة التي ارتكبتها ولا يغفرها لها التاريخ هو أن القائمين بأعبائها منذ البدء جعلوا اللغة التركية لغة الدولة الرسمية خلافاً لما جرت عليه دول الإسلام السالفة كدولة المصامدة البربر في الغرب الأقصى والأدنى ودولة الجراكسة في مصر والشام ودولة آل سلجوق التركية في العراق وشبه الجزيرة ودولة بني بويه الفارسية ودولة آل أيوب الكردية في مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها من الدول التي طرحت لغاتها وعمدت إلى اتخاذ اللغة

العربية لغة الحكومة والدولة الجراكسة والبربر والفرس والأكراد والأتراك يتخلون عن لغاتهم مختارين ولا يستعملون في الرسميات غير العربية لغة البيان والعلوم أما الترك فجزوا على غير سنة الدول السالفة فلم يروا من المصلحة تعلم لغة عامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها واكتشفوا بلغة ملفقة بدوية ما برحوا يتفرون منذ قرون على إصلاحها وهيئات أن تكون كما يجبون.

ولما جاء السلطان سليم الفاتح مصر والشام وكان على شيء من المعرفة يحسن العربية كما يحسن الفارسية والتركية أحب أن يتلافى الغلط الذي سارت عليه دولته وأن يجعل اللغة العربية لغتها الرسمية أسوة الدول الإسلامية البائدة فقام عليه بعض ضعاف العقول من أهل دولته وأرادوه على العدول عن رأيه مخافة أن تندثر لغتهم بل تخلصاً من أن يعلموا لغة غيرها فكان عملهم هذا من جملة السدود التي حالت دون آل عثمان وبسط أيديهم على الممالك الإسلامية المجاورة لهم واللغة العربية أعظم رابطة بين المسلمين.

ولقد كانت الدولة ولا تزال تعلم في مدارسها الرسمية العربية كما تعلم الفارسية وذلك لأن التركية مزيج من هاتين اللغتين وبدون معرفة قليل من اللغتين لا يتأني لتركي أن يكتب كتابة صحيحة في لغته فكان شأفاً من بعض الوجود شأن المدارس في أوروبا لا تزال إلى اليوم تعلم اللاتينية واليونانية لأنهما أصل لغات أوروبا وإن كانتا بادتا أو كادتتا. ولكن مدارس أوروبا أخرجت كتاباً بهذين اللغتين ولم نعهد من مدارس الحكومة العثمانية كتاباً بالعربية أو الفارسية. هذا والتركية ليست لغة دين ولا لغة علم ولا لغة حضارة قديمة ولا مدينة معروفة كالعربية التي شهد أهل الأرض بأعجاب أهلها وحضارتهم. ومن الغريب أنه لم ينبغ في الدولة العثمانية كاتب عربي من أصل تركي على حين نبغ وينبغ من الفرس والأكراد وغيرهم أناس يؤيفون بالعربية

فتحهم عرباً خالصاً. وانك لتقرأ العجمة في كلام ابن كمال باشا وكاتب جلبي وطاشكو بريلي وغيرهم من الأتراك الذين عانوا القلم العربي وعدوا في المصنفين ما لا تقرأوه في كلام الراغب الأصفهاني وأبي بكر الخوارزمي وحجة الإسلام الغزالي بل إن هؤلاء على منشايمهم الفارسي كانوا أئمة الإنشاء العربي.

إذا تعلم أبناءنا اليوم على الطريقة التركية لا يلبثون أن يجيئوا أتراكاً ويتقنوا التركية كأرقى أبنائها وبذلك لا يخدمون أبناء لغتهم أدنى خدمة وقد رأينا معظم الذين تعلموا من أبناء سورية والعراق في المدارس الرسمية لا يحسنون التكلم بالعربية العامية فضلاً عن أن يكتسبوا سطين صحيحين بلغتهم بل ربما رأيتهم يمزجون المصطلحات التركية وبعض الألفاظ التركية بينما هم يكلمونك بالعربية فكأن شأنهم في هذا شأن أكثر التوانسة والجزائريين من سكان المدن يتكلمون بعربية تكاد تكون أقرب إلى الإفريقية لما خالطها من الألفاظ الإفريقية والإسبانية والطلانية.

وقد رأى بعض العقلاء أن أحسن حل لمسألة اللغة العربية في المدارس الرسمية وسلمه عاقبة على أجيال الدولة المخلفة هو أن يجعل تدريس العلوم المادية كلها باللغة العربية كالطبيعات والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وأن تجعل العلوم السياسية كلها باللغة التركية كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والحقوق والاجتماع وبذلك لا يقع حيف على العرب وهم نصف الدولة أو يزيدون ولغتهم أفضل لغات سائر العناصر العثمانية. والمقبل كليل بحل هذه المعضلة العلمية.

ضراء العلماء

يلد الإصلاح بادئ بدء غريباً لا يأنس به إلا ذوو الاستعداد الفطري للمبادئ العالية وأبناء العلم والتهديب من رجال الأمة والبقية منهم يناهضونه إما بدافع جهلهم وتعصيمهم أو لعدم انطباقه مع ما يترعون إليه من التقاليد التي وجدوا عليها آباءهم